السر والحكمة

في الصلاة على نبي الرحمة

كتبه: بأس الفرد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الكبرياء، وصلّى الله على خاتم الأنبياء، أما بعد:

فقد أتت علي برهة من الدهر لا أرجع فيها إلى يقين، ولا أظفر بحجة في الحكمة من قول عمر رضي الله عنه: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ»، ثمّ أمعنت النظر ما شاء الله أن أمعن حتى هديت الرشد وبلغت القصد، وأنا أذكر لك من ذلك مافيه دليل يقنع، وكفاية تغني، فالزمه لزوم من لا غناء به عنه.

إعلم هديت أن بيان السر في الصلاة على النبي ﷺ من ثلاثة وجوه:

أولها: أنه شيء رضيه الله لنفسه وملائكته الكرام، وحسبك بهذا فضلا، قال جل جلاله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ .

قال ابن القيم في جلاء الأفهام: «إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة، ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم فينقض اللفظ والمعنى فإن

التقدير يصير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه فادعوا أنتم له وسلموا وهذا ليس مراد الآية قطعا بل الصلاة المأمور بها فيها هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه فهي تتضمن الخبر والطلب وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين أحدهما أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشادة بذكر شرفه وفضله والإرادة والمحبة لذلك من الله تعالى فقد تضمنت الخبر والطلب، والوجه الثاني أن ذلك سمي منا صلاة لسؤالنا من الله أن يصلي عليه فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به».

والثاني: التسليم لأمر الله، إذ كان في طلب الحكمة تكلف لا يخفى على ذي نهية، وفي الأثر الذي رواه سعيد بن منصور عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرأ على المنبر: ﴿وفاكهة وأبا﴾، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه، فقال: لعمرك، إن هذا لهو التكلف يا عمر».

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: «ولقد أنس ببديهة العقل خلق من الأكابر، أولهم إبليس، فإنه رأى تفضيل النار على الطين، فاعترض. ورأينا خلقًا ممن نسب إلى العلم قد زلوا في هذا، واعترضوا، ورأوا أن كثيرًا من الأفعال لا حكمة تحتها. والسبب ما ذكرنا، وهو الأنس بنظر العقل في البديهة والعادات، والقياس على أفعال المخلوقين، ولو استخرجوا علم العقل الباطن، وهو أنه قد ثبت الكمال للخالق،

وانتفت عنه النقائض، وعلم أنه حكيم لا يعبث، لبقي التسليم لما لا يعقل، واعتبر هذا بحال الخضر وموسى عليهما السلام، لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات أنكر موسى، ونسي إعلامه له بأني أنظر فيما لا تعلمه من العواقب؛ فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق، فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم، وهذا أصل، إن لم يثبت عند الإنسان؛ أخرجه إلى الاعتراض والكفر، وإن ثبت، استراح عند نزول كل آفة»، **قال الهروي في منازل السائرين:** «وفي التسليم والثقة والتفويض ما في التوكل من الاعتلال وهو من أعلى درجات سبيل العامة وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى تسليم ما يزاحم العقول مما يشق على الأوهام من الغيب والإذعان لما يغالب القياس من سير الدول والقسم والإجابة لما يفزع المريد من ركوب الأحوال، والدرجة الثانية تسليم العلم إلى الحال والقصد إلى الكشف والرسم إلى الحقيقة، والدرجة الثالثة تسليم ما دون الحق إلى الحق مع السلامة من رؤية التسليم بمعاينة تسليم الحق إياك إليه»، ولهذا الكلام أسرار قد كفانا ابن القيم مؤونة الاشتغال بها، فانظرها في مدارج السالكين إن شئت.

ثم إذا لم تقنع بهذه الرتبة، وأردت ما وراءها من الحكمة، **فههنا وجه ثالث** : هو أعدل تلك الوجوه وأظهرها، وهو أنّ في تقديم الصلاة على النبي ﷺ بين يدي الدعاء إقرارا بمنة الله عليك من وجوهٍ كثيرة لا تتناهى، وذلك أنك لم تكن لتهتديَ إلى هذا الدعاء بألفاظه وكلماته، ولا إلى التوحيد بحركاته وسكناته، لولا بعثة النبي ﷺ ومنته عليك، **قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:** «لولا النبوات لم يكن في العالم

علـم نافـع البتـة ولا عمـل صالـح ولا صـلاح في معيشـته ولا قـوام لمملكـة ولـكان النـاس بمنزلـة البهائـم والسـباع العاديـة والـكلاب الضاريـة التـي يعـدو بعضهـا علـى بعـض وكل ديـن في العالـم،

فمـن آثـار النبـوة وكل شـيء وقـع في العالـم أو سـيقع فبسـبب خفـاء آثـار النبـوة ودروسـها فالعالـم حينئـذ روحـه النبـوة ولا قيـام للجسـد بـدون روحـه ولهـذا إذا تـم انكسـاف شـمس النبوة مـن العالم ولـم يبـق في الأرض شـيء مـن أثارهـا البتـة انشـقت سـماؤه وانتثـرت كواكبـه وكـورت شمسـه وخسـفت قمـره ونسـفت جبالـه وزلزلـت أرضـه وأهلـك مـن عليهـا فـلا قيـام للعالـم إلا بأثـار النبـوة» صـدق وأحسـن، ألا تـرى أن العقـول وإن اهتـدت إلـى قبـح الظلـم والشـرك وحسـن العـدل وشـكر المنعـم فإنهـا لا تهتـدي إلـى تفصيـل ذلـك، ولـولا منـة الله علـى خلقـه بالنبـوات مـا ظفـر النـاس بمطلـوب، ولغلبهـم الشـك وعلتهـم الحيـرة أبـد الدهـر، فهـذا بيـن لمـن تأملـه.

وجمـاع الأمـر أنَّ الإقـرار بالمنـة أصـل كل خيـر، وجحودهـا سـبب لـكل شـر، فمـن ثـم كان الكفـر هـو السـتر عنـد العـرب، **قـال الزجاجـي النهاونـدي في كتـاب الاشـتقاق:** «وكذلـك الكفـر كانـت العـرب تعرفـه تغطيـة الشـيء وسـتره فقيـل لهـم: سـموا مـن خالـف أمـر الله ونبيـه ولـم يؤمـن بهـذه الشـريعة خاصـة كافـرًا، فعقلـوا مـا خوطبـوا بـه مـن معنـى الكفـر، لأن الكفـر إذا كان عندهـم السـتر فمعقـول إنـه مـراد بـه أن الكافـر سـاتر نعـم الله عليـه أو مـا عرفـه مـن توحيـد»، ولهـذا كان شـكر المنعـم واجبـا بالعقـل، إذ كان الإنسـان واجـدا في نفسـه ضـرورة محبـة خالقـه وبارئـه، لا أنّـه أنعـم عليـه بمـا يخالـه النـاس نعمـا، فـإن منهـم مـن لا يظفـر

بذلك البتة، بل هو من شقاء إلى شقاء حتى يأذن له ربّ البرية بغيره[1] ولكن التوحيد حق، والاعتراف بالحق واجب، وهو زكاةُ العقل إذ كان العقل منة من الله على عباده، على أن كل الناس واجد أثرا من آثار النعم عليه، عرفه من عرفه، وجهله من جهله.

قال ابن القيم في الصواعق: «ثم قال صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفا لهم ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه ونعمة كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقه وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح».

قال الأردبيلي التبريزي: «ليس المراد من شكر المنعم قول القائل «الحمد لله» و «الشكر لله» فإن العقل لا يوجب التلفظ بكلمة من الكلمات، وليس عبارة عن معرفة الله تعالى، لأن الشكر مسبوق بالمعرفة، بل المراد منه: توجه العبد إلى الله تعالى بجميع ما أنعم الله عليه من السمع والبصر وجميع الجوارح والقلب بأن ينظر بالبصر إلى مخلوقاته ويستدل منها على الخالق، وكذا حكم سائر الجوارح والحواس، ويدرك بالقلب ذاته وصفاته».

وبعد، فإنّ الصلاة على النبي بين يدي الدعاء اعتراف بقصور النفس واحتياجها إلى ربها، وأنه لولاه وما امتن علينا به من النبوات لم ندر ما الدعاء ولا الايمان، ثم في هذا التواضع توسل بالعمل الذي يحبه الله، وهو حبه ﷺ وطاعته، فكأنك تقول: اللهم قد مننت علينا

بمحمد ﷺ فهدينا به، فاستجب دعاءنا لأجل حبنا محبوبك وتصديقنا مبعوثك لا إله إلا أنت.

وفي سر هذا التوسل الفرق بينَ الحنيف والمشرك، والعامل والمتغافل، فإن المسلم يتوسل إلى ربه بطاعة نبيه وحبه، والمشرك يتوسل بذات النبي ويتوكل عليه فاعرفه.

قال ابن تيمية في القاعدة الجليلة: «ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور، يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين. أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته، والثاني: دعاؤه وشفاعته، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين، ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتدا، ولكن التوسل بالإيمان وبطاعته هو أصل الدين، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة» .

ثم في الصلاة على النبيّ ﷺ ما يدل على الاعتراف بمنة الهداية إليها، كما قال الأول:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة

علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله

وإن طالت الأيام واتصل العمر

قال الشافعي في صدر كتاب الرسالة: «الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمةٍ من نعمه إلا بنعمةٍ منه، توجب على مُؤَدِّي ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة يجب عليه شكره بها»، فالحنيف دائب في الشكر والحمد لا يفتر البتة، ولا يمل أبدا، ألا ترى أنه يحمد ربه على النعمة، ثم يبدو له أن ذلك الحمد نعمة تستوجب الحمد، ثم إذا أمعن النظر بدا له أن في اهتدائه للاعتراف بنعمة الحمد، نعمة أخرى تستوجب الحمد وهكذا.

واعتبر بسيد الاستغفار وكيف كان مقدما على غيره من الأدعية لعلة الاعتراف، قال رسول الله ﷺ: « تعلموا سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي ذنبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

قال ابن القيم في رسالة إلى أحد إخوانه: «المشهد الخامس: مشهد المِنَّة: وهو أن يشهد أن المِنَّة لله سبحانه، كونه أقامه في هذا المقام وأهله له. ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته. فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك، كما كان الصحابة يَحْدُونَ بين يدي النبي ﷺ فيقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

قال الله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾، فالله سبحانه هو الذي جعل المسلم مسلما، والمصلي مصليا، **كما قال الخليل** ﷺ ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، **وقال:**

﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾، فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائما بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

وقال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾، **قال**: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾، وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد وكلما كان العبد أعظم توحيدًا كان حظه من هذا المشهد أتم، وفيه من الفوائد أنه يحول بين القلب وبين العُجبِ بالعمل ورؤيته، فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المَانُّ به، المُوَفِّق له، الهادي إليه، شَغَلَه شهود ذلك عن رؤيته، والإعجاب به، وأن يصول به على الناس، فَيُرفع من قلبه، فلا يعجب به، ومن لسانه، فلا يَمُنُّ به ولا يتكثر به، وهذا شأن العمل المرفوع ومن فوائده أنه يضيف الحمد إلى وليه ومستحقه، فلا يشهد لنفسه حمدًا بل يشهده كله لله، كما يشهد النعمة كلها مِنْهُ، والفضل كله له، والخير كله في يديه، وهذا في تمام التوحيد فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وَشُهُودِهِ، فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدًا، وإذا صار لقلبه مشهدًا أثمر له من المحبة والأُنس بالله والشوق إلى لقائه والتنعيم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه»، وهذا باب لا يدرك له مدى، ولست تقدر على بلوغه ولو حرصت، فدونه بيض الأنوق، والكوكب العيوق.

فإن قال قائل بقصور العلم وسوء النظر بأن النبي مضطر إلى النبوة فلا منة له، وإنما المنة لله وحده. قيل له أنت كمن:

أراد طريق العنصلين فياسرت * به العيس في نائي الصوى متشائم**

ألست ترى أن كل واحد منا إذا ما كانت له منة على غيره طلبَ شكره ومدحه، وإذا كفر صنيعه ضاق صدره، واشتد اغتمامه، مع أن ما بنا من خير فمن الله، ولولا منته لما تفضلنا على غيرنا بشيء، فإنّ المعطي مفتقر إلى الله في العطاء أولا، ثم في الإعطاء ثانيا، فتأمل وقس.

ثم إن النبي مكلف كغيره، وقد يخطئ ويتوب، **ألست ترى قوله تعالى**: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾، **وقوله**:﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾، **وقوله**: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾، **وقوله**: ﴿ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾، ومثل هذا في كتاب الله كثير.

وعدل القول في ذلك أن النبيّ أكمل الرجال قبل النبوة وبعدها، واصطفاء الله له من توابع حكمته سبحانه، وكل ما قيل في كل فضل ولطف امتن الله بهما على عباده من العلماء والملوك والأمراء وذوي الشرف، يقال فيما امتن الله به على رسله.

قال ابن القيم في شفاء العليل: «لا يقال: فهلّا سوّى بين خلقه في جَعْلهم كلهم أهلًا لذلك؛ فإن هذا بمنزلة أن يقال: هلّا سوّى بين صورهم وأشكالهم وأعمارهم وأرزاقهم ومعاشهم، وهذا وإن كان ممكنًا؛ فالذي وقع من التفاوت بينهم هو مقتضى حكمته البالغة، وملكه التام وربوبيته، فاقتضت حكمته أنْ سوّى بينهم في الأمر،

وفاوت بينهم في الإعانة عليه، كما فاوت بينهم في العلوم والقُدَرِ والغنى والحُسْن والفصاحة وغير ذلك.

والتخصيصات الواقعة في ملكه لا تناقض حكمته، بل هي من أدلّ شيء على كمال حكمته، ولولاها لم يُعرف فضلُه ومَنّه.

قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾، عليم بمن يصلح لهذه النعمة، حكيم في وضعها عند أهلها، ومنعها غير أهلها.

وقال تعالى: ﴿وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، **وقال تعالى:** ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، **وقال تعالى:** ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾»، **إلى أن قال:** «وهذا كثير في القرآن، يذكر أن تخصيصه هو فضله ورحمته، فلو ساوى بين الخلائق لم يُعرف قدر فضله ونعمته ورحمته،فهذا بعض ما في تخصيصه من الحكمة، **وفي الزهد للإمام أحمد:** أن موسى عليه السلام قال: «يا رب،

هلّا سوّيت بين عبادك؟»، فقال: «إني أحببتُ أن أُشْكَر»، فمواضع التخصيص ومواقع الفضل هي التي يقدح بها نفاة الحكمة فيها، وهي من أدل شيء على كمال حكمته سبحانه، ووَضْعه للفضل مواضعه، وجَعْله عند أهله الذين هم أحق به، وأولى به من غيرهم، وهو الذي جعلهم كذلك بحكمته وعلمه وعزته وملكه، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، ولا يجب بل لا يمكن المشاركة في حكمته، بل ما حصل للخلائق كلهم من العلم بها كنقرة عصفور من البحر المحيط».

وقال ركن الدين ابن الملاحمي الخوارزمي في الفائق: «إن قالوا: فلم لم يخلق الله عزوجل العبيد متساوين في الأمزجة والهيئات التي عندها يميلون إلى الدين، فما يكون لطفا لزيد يكون لطفا لعمرو، فيكون كلهم مجتمعين على الايمان والطاعة؟، قيل له: إن الذي استكشفت عنه مما لا طريق للعبيد إلى العلم به على التفصيل، وإن كنا نعلم على الجملة أن خلقهم مختلفين في أمزجتهم ونحلهم وقواهم وشهواتهم وغير ذلك من أحوالهم هو الذي تقتضيه الحكمة، ولولا ذلك لما خلقهم الحكيم كذلك، وهذا هو جوابنا لمن يسأل فيقول: هلا خلق الكل بصفة الأنبياء، بل بصفة الملائكة».

وبالجملة، «فالخوض في هذا الطّرف قديم، وفضله في الحقّ شاقّ، والتنازع فيه قائم، والظّنّ يعمل عمله، واليقين غير مظفور به، ولا موصول إليه، والطبيعة قد أولعت الناس بادّعاء الغرائب، وبعثتهم على نصرتها بالرّفق والخرق، والتسهيل واللّجاج، والمواتاة والمحك، ولله في طيّ هذا العالم العلويّ أسرار وخفايا وغيوب ومكامن لا قوّة

لأحد من البشر بالحسّ ولا بالعقل أن يحوم حولها، أو يبلغ عمقها، أو يدرك كنهها، ومن تصرّف عرف، ومن عرف سلم، والسلام»[1]

نجز والحمد لله برمضان من سنة ١٤٤٦، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) الامتاع والمؤانسة، ص: ١٨٥.